الاولى، وبخاصة: «اشياء صغيرة»، ثم ما لبث ان تراجع دون ان ينسحب كلياً، لذلك فإننا نلتقي به من جديد في مجموعة الكاتبة الاخيرة: «العيد من النافذة الغربية» في قصص مثل: «فردة حذاء» و«الفيضان» و«هواجس»، وربما ايضاً في قصة: «هل يذكرها». وتتسم القصص الثلاث الاولى بشكل دائري من الأسى والشقاء، او بشقاء مغلق يبدأ ولا ينتهي، ولا يوحي بالنهاية. ومع ان الكاتبة ترسم شخصياتها بتعاطف حميم، وتضيف إليه تعاطف القارىء ايضاً، فانها لا تعبأ كثيراً بتبيان السببية الاجتماعية، بل تكاد توحي لنا ان مصائب الآخرين هي قدر وقضاء، وتحمل المصائب والشقاء هو قدر مكتوب، لذلك فإن على المُعاني ان يقبل بما قُدّر له، وان ينتظر ثوابه الاكيد القادم في زمن غير معلوم تحدّده الإرادة العليا. اكثر من ذلك، يكاد بعض هذه القصص ان يقول إن نقاء الانسان مرتبط بشكل معين من العذاب، وان الانسان العادي مرتبة معينة لا تبلغ مرتبتها العليا إلا عن طريق توسّطات اخلاقية نسيجها الاخلاق والصبر والقبول بالمكتوب. وإلا فكيف نفسرّ هذا البؤس الدائري والكامل في قصة: «الفيضان» التي ترسم واقع «مومس» كسدت بضاعتها ولا تستطيع الرجوع إلى المكان الذي وفدت منه، فتسترسل في البكاء في استسلام كامل لا يُرى له بداية او نهاية. وفي غياب البداية ونهايتها «القريبة»، تتحرّك الكتابة في عالم الميتافيزياء الذي يرفض التحديد ويقبل بكل ما هو مجرّد او «اثيري».

الموقف الأخلاقي والنزعة الانسانية

إذا كانت «قصة» سميرة عزام محكومة ابداً بوعي اخلاقي، فإن هذا الوعي لا يحقّق حركته متسقاً، لأنه يخضع إلى تناقضه النسبي الخاص، وفي هذا «التناقض»، قرأنا البعد الميلودرامي في تجريده الواهم، وفيه سنقرأ ايضاً البعد الانساني الصريح. وعندما نمايز بشكل نسبي بين الميلودراما والموقف الانساني، فإن هذا لا يعني ابداً ان هذا الموقف قد تحلّل كلياً من الوعي الاخلاقي، وإنما يعني فقط ان هذا الوعي انتقل من حيّز التجريد إلى مساحة الحياة الاجتماعية. يتعامل الموقف الاخلاقي الكامل مع المثل والمعايير، وينطلق منها ليتعامل مع الانسان، اي انه لا يبدأ من الواقع بل من الفكرة، ثم يرفع راية التبشير محاولاً المساواة بين الانسان والفكرة، او محاولاً بشكل بريء إدخال الانسان وممارساته في الفكرة المسبقة، وبذلك يظل الوعي الاخلاقي رهيناً لمقولاته الذهنية التي لا ترى ذاتها في ضوء الممارسة اليومية، وإنما في ضوء المُثُل الواهمة. اما الموقف الانساني، فإنه يظل مخلصاً لحمولته الاخلاقية، لكنه ينتقل، مع ذلك، إلى دائرة الحياة والتحديد، وفي مدار الحياة والتحديد يكتشف الظالم والمظلوم، الغني والفقير، والمصيب والمخطىء، فيقترب من التحديدات الاجتماعية ويأخذ منها موقفاً، والموقف الاخلاقي في ساحة الصراع الاجتماعية لابدّ ان يأخذ جانب الاخلاق، وينتصر لقضية المستضعفين. يقترب الوعي الاخلاقي، في ساحة الصراع الاجتماعية، من تخوم الوضوح او شبه الوضوح، وشبه الوضوح في الصراع هو التزام وموقف ودفاع عن قضية.

إن القبول بما سبق يعطي نتيجة اولى: كانت سميرة عزام، في فنها القصصي، لا تبشرّ بالمثل والمعايير الانسانية فحسب. بل كانت ملتزمة ايضاً بقضايا الانسان المضطهد